الأدب الملتزم

بقلم أنور المعداوي

تسمية خرج بها على الناس يوماً ذلك الأديب الوجودي اللامع جان بول سارتر.. خرج بها ليحدد أهداف لون من الأدب يؤمن به ويدعو اليه فيما يشبه العناد والاصرار حتى لقد انتهى الى ان الالتزام يجب ان يكون غاية كل أدب ورسالة كل اديب ! اما الاهداف التي يرمي اليها من وراء نظريته الالتزامية فهي ان يكون الادب صورة حية للمجتمع الذي ينتسب اليه: في اعماق هذا المجتمع يجب ان يغمس ريشته، ومن واقع هذا المجتمع يجب ان يستمد تجاربه، وحول هذا المجتمع يجب ان يدور بخطوط اتجاهاته الفكرية. انها تبعة ضخمة ليس الى تجاهلها من سبيل، وعلى الاديب ان يتحمل التبعة إذا اراد ان يكون ملتزماً على طريقة الوجوديين. عليه ان يتصل بما حوله، ان يكون قريباً من الناس، ان يصهر كل عواطفه وكل جوارحه في بوتقة مشاعرهم وحاجاتهم، ألا يكون بمعزل عن مشكلات عصره ليستطيع ان ينفذ الى أغوار هذه المشكلات: ينفذ الى أغوارها بشعوره ليصدق في الاحساس بها والتعبير عنها حين يتحدث الى الجماهير، وينفذ الى اغوارها بفكره وعلمه وثقافته ليشارك في البحث عما تحتاج اليه من حلول!

كلمات اذا نظرت اليها وهي في هذا الاطار الموضوعي الذي يتسع لها ولا يزيد خيّل اليك ان الكاتب الوجودي لم يخرج على الناس بغير ما خرجت به عليهم الشيوعية، وهي تدعو الى مثل هذا اللون من الادب الذي كم حمل لواءه المريدون والانصار.. هو عند الشيوعيين ادب اشتراكي وهو عند الوجوديين أدب ملتزم؛ وقد يخيل اليك مرة أخرى ان اختلاف التسمية هو كل ما بين المعسكرين من فروق! قد يخيل اليك هذا ولكن الحق الذي لا مراء فيه ان هناك اختلافاً جوهرياً من الناحية الموضوعية.. ومن المؤكد أن جان بول سارتر ليس من الجمود بحيث يردد ما قاله الشيوعيون، ثم لا يحاول ان يجعل من الترديد دعامة تمهيدية لرأي جديد! هو معهم في المقدمات ولكن ما أبعد الشقة بينه وبينهم في النتائج وما اوسع دائرة الخلاف! انه لا يدعو الى مثل هذا اللون من الادب الملتزم أو الأدب الاشتراكي كما يحلو للشيوعيين أن يسموه، ثم يقف عند هذا الحد الذي وقفوا هم عنده دون أن يحققوا لهذا الأدب ما يتطلع اليه من مثالية. إن الادب لكي يكون ملتزماً في رأي سارتر لا بد له من ان يتنفس هواء الحرية بملء رئتيه.. لا بد من حرية الكاتب فيما يكتب ولا بد من حرية القارىء فيما يقرأ ليتحقق ذلك الهدف المثالي لمبدأ الالتزام! اما حرية الكاتب فلن تتوفر له إلا إذا تخلص من الخضوع لتيارات حزبية معينة تملي عليه ما يتفق ووجهة نظرها من آراء وأفكار: وأما حرية القارىء فتتمثل في عدم إرغامه على قبول لون بعينه من الانتاج الادبي الذي يتجه الى غاية محدودة وهدف مرسوم... لا مناص من حرية الفرد الكاتب وحرية الفرد القارىء حتى يتمكن الأدب من تأدية رسالته الالتزامية، ولن يكون الاديب ملتزماً وهو مشدود الى عجلة حزب سياسي يوجهه فيتجه ويدفعه فيندفع ويسيره فيسير، وما دام القراء مقيدين بنظم سياسية خاصة تفرض عليهم ان يقرأوا هذا ويدَعوا ذاك فهم عبيد، والادب الحر الملتزم لا يمكن ان يخاطب العبيد!

يهدف سارتر من وراء هذا كله إلى أن يضع حدوداً فاصلة بين الادب الذي يريده وبين الادب الذي يريده الشيوعيون، حتى لا يلتبس على الافهام إدراك أغراضه ومراميه... ولعل المعنى البعيد الذي يدور حوله وهو يتحدث عن حرية الكاتب وحرية القارىء واضح للأذهان، حين نضع نصب أعيننا خصومة الكاتب الوجودي للشيوعية! إن من خصائص هذا النظام في رأي سارتر انه يلغي حرية الفرد في التفكير والتعبير، وتبعاً لهذا فهو يلغي عنصراً جوهرياً من عناصر الالتزام وهو ان يتحمل الاديب تبعة ما يكتب، حين يطلب الى الادب أن يتحمل التبعات.. ومن هنا يؤمن زعيم الوجوديين بان الادب الحر الملتزم لا يمكن ان يعيش في ظل النظم الدكتاتورية!

« إذا استطاع الكاتب الملتزم أن يعيش في أعماق التجربة، تجربة عصره التي تنبع من مشكلات المجتمع وتترك رواسبها في قرارة الشعور، ثم استطاع بعد ذلك أن ينقل إليك هذه التجربة كما أحسها بصدق، وكما التقطها بعمق، وكما تلقاها بانفعال، ثم استطاع مرة ثالثة أن يلهب عواطفك وأن يهز مشاعرك فيثيرك في مواقف الاثارة النفسية والفكرية ... إذا استطاع أن يفعل هذا فقد حملك على أن تتمثل التجربة وان تفكر في المشكلة وان تثور على الاوضاع، وعندئذ يكون قد أدّى على خير الوجوه رسالة الالتزام».

هذا هو التزام الادب كما يؤمن به جان بول سارتر وكما يدعو اليه... واليوم يختلف الادباء هنا وفي كل مكان حول هذا اللون من الادب، وتختلف تبعاً لذلك وجهات النظر وتتباين الآراء: فريق يتعصب للادب الاجتماعي فهو يريد ان يجعله ضريبة مفروضة على كل أديب، يؤديها، في كل وقت وكل مناسبة ثم لا يسمح لقلمه بان يكتب في أي موضوع سواه. وفريق لا يكتفي بان يكون الادب صورة صادقة لمشكلات المجتمع الذي يعيش فيه، لانه لا يريد لهذا الادب ان يقف موقف الطبيب الذي يقتصر على تشخيص المرض وتحديد مكامن الداء، وإنما يريد له أن يتخطى هذه المرحلة إلى تلك المرحلة الاخرى التي يبحث فيها الطبيب عن العلاج الناجع والدواء المفيد. وفريق ثالث يؤيد الفريق الاول حين لا ينكر قيمة الادب المتصل بما حوله ولكنه يختلف معه في فرضه ضريبة دائمة على اتجاه الافكار ونفثات الاقلام. وفريق رابع يؤيد الفريق الاول ايضاً في كل ما ذهب اليه ولكنه لا يحب أن يكون كالفريق الثاني مسرفاً في مطالبة الادب بما لا يدخل في دائرة اختصاصه من أمور، كأن يفرض عليه مثلاً أن يسهم في البحث عن حلول لكل ما يتعرض له المجتمع من مشكلات؛ وقد تكون هذه المشكلات من اختصاص السياسيين أو الاقتصاديين أو الكتاب الاجتماعيين. وفريق خامس لا يميل إلى تكبيل الادب بأي قيد من القيود سوى تلك القواعد الفنية التي لا مفر من أن يلتزمها الاديب، وحسب الادب أن يعبر صادقاً عن انفعالات النفس أمام كل هزة من هزات الكون وكل مشهد من مشاهد الحياة!

ونقف نحن أمام هذه الآراء مستعرضين ومتأملين، لانها قد أصبحت بين طبقات المثقفين مثار جدل وخلاف. نقف أمامها لنقول إننا في مثل هذه الظروف الاجتماعية التي تحيط بنا وهي حافلة باسباب القلق زاخرة بتعدد المشكلات، لا نستطيع أن نغفل دعوة الداعين إلى الادب الملتزم... إلى هذا الادب الذي حددت معالمه «الآداب» على لسان رئيس تحريرها وهو يقول:

«تؤمن المجلة بان الادب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة، هي غاية الادب الفعال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به. والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطني أن يجند جهوده للعمل، في ميدانه الخاص، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري. ولكي يكون الادب صادقاً، فينبغي له ألا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه. وهدف المجلة الرئيسي أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويعدون شاهداً على هذا العصر: ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي، ويعبرون عن شواغله، يشقون الطريق أمام المصلحين، لمعالجة الاوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا فان الادب الذي تدعو اليه المجلة وتشجعه، هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه.

«والمجلة، إذ تدعو إلى هذا الادب الفعال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الادباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الايام ان يخلقوا جيلاً واعياً من القراء يتحسسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواة للوطنيين الصالحين.

«على أن مفهوم هذا الأدب سيكون من السعة والشمول حتى ليتصل اتصالاً مباشراً بالأدب الانساني العام، ما دام يعمل على رد الاعتبار الانساني لكل وطني، وعلى الدعوة الى توفير العدالة الاجتماعية له، وتحريره من العبوديات المادية والفكرية، وهذه غاية الانسانية البعيدة. وهكذا تسهم المجلة في خلق الأدب الانساني الذي يتسع ويتناول القضية الحضارية كاملة، وهذا الأدب الانساني هو المرحلة الاخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطورها.»

جان بول سارتر

هذه الدعوة الصادقة، مصبوبة في هذه الكلمات الواعية، متجهة الى هذه الأهداف المثالية، جديرة بان يتقبلها الأدباء تقبل الايمان الذي لا يشوبه الشك بان الادب تبعة ومسؤولية: تبعة حين نفهم انه رسالة توجيه ومشعل إصلاح وقيادة رأي ودعوة حرية وكرامة وعدالة... ومسؤولية حين ندرك ان من واجب الموجّه والقائد والمصلح ان يكون أميناً في نقل آرائه، حراً في تكوين أفكاره، لأن المطلوب من الأدب كما يقول سارتر ان يخاطب الأحرار وألا يتجه إلى العبيد! عندئذ

تتحقق هذه الأمنية التي تتطلع اليها « الآداب » ويقوى الأمل ويصدق الرجاء في توفير العدالة الاجتماعية للفرد وتحريره من العبوديات المادية والفكرية . وإننا لنعني بكلمة الفرد كل فرد سواء أكان منتسباً إلى مجتمعنا القومي أم كان متصلاً بالمجتمع الانساني العام ، وهذه هي . حلة الشمول التي يجب ان يبلغها الادب مهما اعترضت طريقه الحواجز والعقبات ! نقول هذا وكم كنا نحب أن تطرق «الآداب» باباً آخر من أبواب الدعوة إلى الادب الملتزم ، كما طرقه زعيم الوجوديين يوم أن خرج على الناس برأيه في رسالة الادب الاجتماعية ...

يذهب سارتر ويذهب معه كل المؤمنين بدور الادب في توجيه المشاعر القومية في حياة الشعوب ، إلى أن قوى الحضارة المعاصرة قد استحدثت أعظم وسائل الاتصال بين قادة الفكر وبين الجماهير ... لقد كان الخيط الاتصالي الذي يربط بين الكاتب والجمهور القارىء محصوراً في الكتاب ؛ وحين تقدمت الحضارة خطوة إلى الامام ظهرت الصحيفة واتسعت بين هؤلاء واولئك دائرة الاتصال ، ثم ظهرت من بعد ذلك « السينما » وظهر من بعدها «الراديو»، ورُحب بذلك أفق المشاركة الفكرية والوجدانية . وإذن فعلى الاديب الملتزم أن يستغل كل وسيلة من هذه الوسائل لتتم الصلة بينه وبين الرأي العام على اوسع نطاق ... عليه أن يؤدي رسالته على الورق وفوق خشبة المسرح وعلى شاشة السينما وعلى موجات الاثير ، وبخاصة إذا كان قصاصاً او كاتباً مسرحياً أو ما شئت من تنوع المواهب عند الأدباء وتعدد الملكات!

ولا نريد هنا أن نقصر الحديث على الأدب الملتزم وحده لأن سارتر يريد أن يعفي الفنون الاخرى من مبدأ الالتزام . إنه يريد أن يعفي الشعر والتصوير والموسيقى من أن تلتزم تلك الاهداف الضخمة التي أشرنا اليها فيما سبق من حديث ، لانها أقل من الادب قوة في الافصاح وقدرة على التعبير حين يطلب في الفن أقصى المدى من الايحاء والتأثير ! يريد هذا لانه يفرق بين مادة النثر وهي الالفاظ ، وبين مادة التصوير وهي الالوان ، وبين مادة الموسيقى وهي الاصوات ؛ يفرق بينها من حيث خصائصها الفنية ودلالاتها المعنوية ... إن الالفاظ عنده وسائل تؤدي إلى غايات ؛ وسائل يستخدمها الاديب ويؤلف بينها ليصل إلى ما يرمي اليه من آراء وأحكام ، إنها المعابر التي تنتهي به إلى ما يريد من صور تعبيرية ومعان كلية ، إنها الاشياء التي لا تطلب لذاتها وإنما تطلب لتوحي بما بعدها وتشير إلى ما وراءها من الحقائق والافكار.. أما الالوان فمن خصائصها انها أشياء تطلب لذاتها وكذلك الاصوات، لانها ليست اكثر من أدوات لا تملك القدرة على التعبير عما وراءها من افكار وحقائق ومن معان وصور ، ومن أحكام وآراء . تأتلف الانغام والالوان فينتج عن هذه اللوحة الفنية وينتج عن تلك المقطوعة الموسيقية ، ولكن ماذا في اللوحة غير المشهد المنظور وماذا في المقطوعة غير النغم المسموع ؟ قد تكون هناك دلالة تعبيرية وفكرة إيحائية ، ولكنها الدلالة التي تنحصر في المعنى القريب والفكرة التي تقتصر على الواقع المحدود .

وحين يتطرق سارتر إلى الحديث عن الشعر لا يتردد في أن يضمه إلى قائمة الفنون المعفاة من مبدأ الالتزام ... صحيح أن مادة الشعر هي الالفاظ وإنه ليتفق في ذلك مع النثر ، ولكن شتان في رأيه بين الالفاظ وهي في منظار الكتّاب وبينها وهي في منظار الشعراء : إنها عند الفريق الاول معابر إلى قيم فكرية ولكنها عند الفريق الآخر معابر إلى قيم جمالية ؛ نعني تبعاً لموازينه ان استخدام الكتّاب للالفاظ هو بقصد الدلالة على ما تحمله من معانٍ ، وان استخدام الشعراء لها هو بقصد الكشف عما تحمله من ألوان الجمال ؛ نعني مرة اخرى ان الشاعر يعيش في اللفظ نفسه على حين يعيش الناثر فيما وراء اللفظ من إيحاءات ورموز !

اننا نوافق الكاتب الوجودي على ان الفنون الأخرى أقل من الأدب قوة في الافصاح وقدرة على التعبير حين يطلب في الفن أقصى المدى من الايحاء والتأثير .. نوافقه لاننا نؤمن مثلاً بان قصيدة من الشعر مهما حملت من خلجات النفس ومهما نقلت من سبحات الفكر ومهما عكست من صور الحياة ، لا يمكن ان تبلغ من الاحاطة بهذا كله ومن التغلغل في أعماقه والنفاذ الى أغواره ما تبلغه قصة من القصص او مسرحية من المسرحيات ! أما قول سارتر بان الشاعر يعيش في الالفاظ نفسها وهدفه من وراء ذلك هو إبراز ما فيها من عناصر الجمال ، فهو قول يحمل من الاطلاق والتعميم ما يجعلنا نقف أمامه منكرين ومعترضين : ننكره ونعترض عليه لانه لا ينطبق على غير شعراء الصنعة الذين تخلو نفوسهم من المشاعر وتفرغ رؤوسهم من الافكار ، فلا يجدون امامهم غير الالفاظ يتعهدونها بالتنميق والتزويق لان هذا هو كل ما يملكون من طاقة وكل ما يستطيعون من جهود.

ان هؤلاء الشعراء هم وحدهم الذين يجب ان تشملهم قائمة الاعفاء الوحيدة في هذا المجال ، لاننا لا نريد ان نعفي بقيـــة الشعراء والفنانين من مبدأ الالتزام.. لو قال سارتر عن الشعر والتصوير والموسيقى إنها لا تستطيع ان تشارك في إيجاد الحلول المناسبة لما يعترض المجتمع الانساني من مشكلات ، لكان قوله هذا حجة قوية تفوق حججه الاخرى في تبرير حكمه السابق على تلـــك الفنون . ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان ننكر دورهـا في التعبير والاثارة ولو كان هذا الدور أقل امتيـــازاً من دور الادب .. ولعل سارتر نفسه لا يستطيع ان ينكر التزام الشعر عند أمثال بوشكين ، والتزام التصوير عند أمثال ديلاكروا ، والتزام الموسيقى عند أمثال شوبان !

نحن إذن نؤيد الدعوة الى الادب الملتزم والى الفن الملتزم بوجه عام ، ولكننا نحب في هذا الموقف ان نوجه كلمة هادئة وعادلة الى بعض « التقدميين » ، اولئك الذين يمكن ان توصف أحكامهم بالغلو وتتهم بالاسراف . . لقد قرأنا لاحدهم مرة رأياً عجيباً حول قصة مصرية ملتزمة لقصاص مصري ممتـاز ؛ قصة ربط المؤلف حوادثها بمشكلة من مشكلات المجتمع وهي الفقر ، ثم رد إلى هذه المشكلة كل حركة نفسية ومادية في سلوك أبطالها الرئيسيين ، ثم أفرغ هذا كله في إطار من النقد الاجتماعي البارع الذي يزخر باللقطات الواعية . التزم المؤلف باعتراف الناقـــد « التقدمي » ولكنه مع ذلك لم يرض عن هذا اللون من الالتزام ، لانه في رأيه لم يبحث للمشكلة عن حل ولم يحدد طريقـــة من طرائق العلاج .. وهذا النقص وحده كفيل بان يسقـط القصة من حساب الفن ومن حساب التقدير ! ترى هل سمع أمثال هذا الناقـــد التقدمي رأي « لينين » في أدب بلزاك ؟ لقد كان بلزاك في رأي لينين أعظم كتاب القصة في أدب العـــالم .. ليس ذلك لانه حين صور في قصصه مشكلات عصره قـد بحث لهذه المشكلات عن حلول ، ولكن لانه قد صور هذه المشكلات تصويراً بلغ من الدقة والوعي مـــا جعل لينين يقول : ان الصورة التي خرجت بها من قصص بلزاك عن المجتمع الفرنسي في عصره ، لم أستطع أن أخرج بمثلها من كل ما قرأت عن فرنسا من كتب التاريخ .. لهذا كان بلزاك في رأيه أعظم كتاب القصة في أدب العالم ؛ ولو وضع لينين على عينيه منظار تلاميذه لاحتل جوركي هذه المكانة واستحق هذه الكلمات ! !

لا داعي إذن للغلو ولا مـــبرر للاسراف ، لان الكاتب الملتزم إذا استطاع ان يعيش في أعماق التجربة ؛ تجربـة عصره التي تنبع من مشكلات المجتمع وتترك رواسبهـــا في قرارة الشعور ، ثم استطاع بعد ذلك ان ينقل اليك هـذه التجربة كما أحسها بصدق وكما التقطها بعمق وكما تلقاها بانفعال ، ثم استطاع مرة ثالثة ان يلهب عواطفك وان يهز مشاعرك فيثـــيرك في مواقف الاثارة النفسية والفكرية .. إذا استطاع ان يفعل هذا فقد حملك على ان تتمثل التجربة وان تفكر في المشكلة وان تثور على الاوضاع ؛ وعندئذ يكون قد أدى على خير الوجوه رسالة الالتزام ! اننا لا ننكر أثر اتجـــاه الكاتب الملتزم الى الناحية العلاجيـة فيما يعرض له من مشكلات ، ولكن الذي ننكره هو ان يُرمى كل ادب لا يتجه الى هذه الناحية بانه لا جدوى منه ولا غناء فيه .. ان الادب يستطيع ان يكون فعّالاً إذا أشعر الناس بحقيقة وجودهم وفتح عيونهم على كثير من الحقائق التي توجه حياتهم ، لانه بذلك يدفعهم دفعـــاً الى التفكير في المصير !

القاهرة — **انور المعداوي**

صدر حديثا

سلسلة الاسلام الحضاري

(١)

الاسلام والمجتمع العصري

حوار ثلاثي حول الدين وقضايا الساعـة

تأليف

الدكتور صبحي الصالح

(٢)

كيف نفهم الاسلام

تاليف المستشرق

فريتجوف شيون

ترجمة الدكتور عفيف دمشقيـة

دار الآداب